مدام دوستايل

يشهد كتبة فرنسا ان هذه المرأة اشتهرت في القرن الثامن عشر حتى صارت تعدُّ في مقدمة كتبتهم وشهيرات نسائهم . وترجمتها طويلة واخبارها كثيرة ولذلك اقتطفنا منها ما يناسب المقام ويحث بنات جنسها على اقتباس الفضائل واجتناب الرذائل

مدام دوستايل

ولدت هذه الشهيرة بباريس سنة ١٧٦٦ وتولت امها تعليمها ولكنها كانت تجهل مقتضيات الطفولية ومراعاة حال الاولاد من حيث مزاجهم وميلهم واتجاه عواطفهم فشدّدت على ابنتها في التعليم

واتخذت الصرامة ديدنًا لها في التربية والتاديب وهو خطأٌ ولاسيما في من امتلأ حياةً ونشاطًا كابنتها فلذلك لم يعلق قلب ابنتها بها ولا كان لكلامها وقع مقبول في نفسها ومن جملة ما يبين ذلك انها كانت تحبُّ اللعب مما يشبه التشخيص في المراسح وتميل الى ذلك ميلاً شديدًا فتعمل ملوكًا وملكات من الورق وتشخص لها مواقع من فكرتها وتتكلم في التشخيص عنها وكانت امها تكره المراسح والتشخيص وتمنعها من اللعب بتلك الصور غير مراعية ميلها الشديد الى ذلك. فكانت ابنتها تختبئ وتلعب خفيةً عنها ولا تكاشفها بشيء مما يخطر في بالها من ذلك

واما ابوها فكان اوفر من امها حكمةً واكثر معرفة في معاملة ابنته فيلاطفها ويمازحها ويحدثها حتى تانس اليه وتكشف له قلبها. ولذلك كانت تحبه حبًّا شديدًا وتفعل ما في طاقتها لتسرهُ وتكتسب رضاهُ. رُوي انهُ لما كان عمرها عشر سنوات سمعت اباها يمدح كِبن المؤرخ الانكليزي مدحًا عظيمًا وبتمنى لو أُتيح له ان يحادثه ويعاشرهُ ففكرت طويلاً ثم قالت على بساطة قلبها "زوجني به يا ابي فيكون سميرك دائمًا" مقتنعة ان مرضاة والدها واجبة عليها ولو مهما كلفتها. وكان حبها لابيها يتعاظم في قلبها يومًا فيومًا حتى قالت له مرة اني احسدُ امي عليك. وكانت تقول لما كبرت ان ابي كان اثناء تحدثهِ ومزحهِ معي يكشف لي كل عيوبي ونقائصي ويكرهني بالرياء والنفاق حتى صرت احسب ان كل احدٍ يرى افكاري كما يرى ظاهري فلا اتظاهر بغير ما انا عليهِ

وكان ابوها رجلاً عظيمًا ووزيرًا على مالية لويس السادس عشر ملك فرنسا مهابًا بعيد الصيت والسطوة والنفوذ يختلف الى بيتهِ عظام فرنسا وعلماؤها وشعراؤها فكانت امها تاتي بها وهي صغيرة السن الى قاعة الاستقبال وتجلسها على كرسي مستدير بجانبها وتوصيها من حين الى حين بالجلوس مستقيمةً امثلاً تكون حديث الظهر متى كبرت. فتجلس هناك شاخصة الى احاديث الزوّار تلتقط كل كلمة تخرج من افواههم وتصغي اتمَّ الاصغاء الى احاديثهم وتزن ممانيهم حتى يرى الناظر من علامات وجهها انها لا تدع فائدة تفوتها وانها تبتلع المعاني ابتلاعًا على صغر سنها. وكانوا كلهم يحدثونها كما يحدثون كبار السن ويباحثونها في ما تعلمتهُ ويحثونها على درس ما لم تتعلمهُ. فلم تكثر عليها السنون حتى بلغت قوى عقلها مبلغًا قلما تدركهُ العقول في سنها ولم تجتَ عليها السنة الخامسة عشرة حتى شرعت في التاليف واشتدَّ حبها للعلماء بالعظماء فكان قلبها ينبض شديدًا عند رويتهم وصيتهم يستفزُّها الى مجاراتهم ومسابقتهم

ولما بلغت السنة العشرين من عمرها شاع ذكرها في الآفاق وانطلقت الالسنة بوصفها فتزوجت بسفير السويج في فرنسا واسمهُ ستايل سنة ١٧٨٦ فانتقع اسمها باب السياسة. وكانت في بداءة عمرها تعتبر فلسفة جان جاك روسو اعتبارًا عظيمًا ولما ابتدأت الثورة الفرنسوية وكان ابوها قد انجد حزب الثائرين مالت اليها حاسبة انها الطريق الوحيدة لسعادة فرنسا ونعيمها. ولكن لما تفاقم خطبها ورأت

فظائعها وعلمت ان احسن اهل وطنها يقتلون بها فرت منها وجعلت همها تخليص الذين قد وقعوا في حبائلها من الموت . فسعت بنجاة العائلة الملكية وفرارها الى بلاد الانكليز ولكنها خابت مسعى فعمدت الى تخليص غيرها وكانت كلما خلّصت شخصاً لا تستريح حتى تخلّص كل من يتعلق به من الاقرباء والاصدقاء وتخاطر بنفسها لخلاص غيرها مخاطرة اعظم الناس بأساً كما يظهر من الحادثة التالي ذكرها : اتفق ان الدول المتحالفة ضيقت على الحكومة الثورويّة سنة ١٧٩٣ فقال رجال هذه الحكومة لا نأمن على نفوسنا ان لم نقتل كل من له ضلع مع الملكية في باريس فاستباحوهم قتلاً ونهباً . وكان لمدام دوستايل اصدقاء كثيرون بينهم فتخلصت بواسطتهم حياة كثيرين وبقي رجل اسمه دو مونتمكيو فعزمت على ان تخرج به من باريس كخادم لها . فلقيها الثائرون في الطريق فانزلوها من مركبتها كرهاً وذهبوا بها الى روبسبيير زعيمهم فاخترقت الصفوف مرتجفة والسيوف والبنادق قد سدت الآفاق من حولها ولو زلت قدمها لتُقتلت دوساً ولكنها ثبتت على ضعفها ورباطنها ست ساعات تسمع صراخ القتلى وانين المعذبين حتى أُطلق سبيلها فخرجت من فرنسا فرحة بانها قد لقيت ما لقيت فداء نفس خلصتها من الموت . وكتبت كتاباً بليغاً في الدفاع عن الملكة ماري انتوانت ولكنه لم يأتِ بالفائدة المقصودة فجزعت على قتلها جزعاً شديداً

وفي ١٧٩٧ عادت من سويسرا حيث كانت الى باريس فوقع الخلاف بينها وبين نبوليون بوناپارت لامها اوجست منه السوء بعد تعرفها به بقليل . قالت اني لما تعرفت به اعجبني خلقه وعقله وقلت انه قد تفرّد فيهما كما تفرّد في انصاره وانه رجل معتدل الطباع من اهل الجد والوقار بعكس زعماء الثورة ذوي الطباع المرّة الذين كانوا يحكمون قبله . ولكن لما هدأ روع اعجابي به وعدتُ الى نفسي شعرت بنورٍ عظيم منه لما وجدته فيه فانه كالسيف البارد الماضي يجد جمودا على حين يجرح جرحاً وعلمت انه يحتقر الامة التي يريد ان يملك عليها . وجاهرت بمائدته فكنت ترى فاعتها غاصة بجماهير الناقمين من بوناپارت والضاغنين عليه . فاوجس بوناپارت خيفة منها وحاول ان يرشيها بالمال لترجع عن معائدته فوعدها بان يدفع لها مليوني ليرة كانا لابيها على الدولة فرفضت قبول تلك الرشوة فقال لها جوزف بوناپارت قولي اذاً ماذا تشتهين فقالت له اني لست افعل ما افعل طمعاً بالحصول على امر اشتهيه بل طبقاً لما اعتقده

وكانت تحبّ سكنى باريس محبة شديدة وتخاف النفي منها جدّاً ولا تسرّ الاّ بمعاشرة الادباء محفوفةً باهل الفضل والاصدقاء . وكان نبوليون بوناپارت يعلم ذلك فلما رأى اصرارها على معائدته ابى الاّ ان ينتقم منها فنفاها الى مدينة بسويسرا يقال لها كيت ولم يسمح لها بالابتعاد عن منزلها اكثر من ميلين وحرمها من العودة الى باريس فكان ذلك عليها مصيبة لا تطاق فقضت باقي ايامها

تعيسة على فراق باريس

وتولّت تربية اولادها بشخصها فكانت تعلّمهم اكثر النهار ولم تنقطع عن ذلك في اشدّ ايامها حزنًا وكآبةً . وكانت مع انهماكها بالتاليف والسياسة وعلاقاتها الكثيرة مع مشاهير العالم القريبين والبعيدين لا تغفل عن ملاحظة اولادها واصلاح اخلاقهم وتحسين احوالهم ولا يستريح بالها اذا رأت شائبة فيهم الّا بتنبيههم عليها وتقول لهم اذا سلكتم سلوك الادنياء وارتكبتم المعاصي فاني اشعر بان ضميري يوبخني فوق حزني على ما فعلتم . ولذلك كان اولادها يحبّونها حبًّا عظيمًا ويخاطرون بانفسهم دفاعًا عنها كما يظهر من القصة الآتية : روى المؤرخون ان نبوليون بونابارت كان مسافرًا الى ساقوى سنة ١٨٠٨ فلما سمع ابنها الثاني لبكرها بذلك اسرع لمقابلته في شامبيري وكان عمرهُ حينئذٍ سبع عشرة سنة فقط فلما رأى الموكب الملكي مقبلاً دنا من بعض الحشم وسلّه تحريرًا يطلب بهِ مقابلة بونابارت فقال بونابارت ايتوا بهِ فمثل الشاب بين يديهِ وهو يتناول الطعام مسرعًا فقال من اين جئت فقال من فينا يا مولاي فقال واين امك قال في فينا او قريبة منها فقال انها مبسوطة هناك ولترتض بحالتها وانا اعلم انها ليست خيثة بل ثاقبة العقل جدًّا ولكنها لم تعتد في ايامها ان تكون مرؤوسة من احد . فالحّ ابنها عليهِ ان يأذن بردّها الى باريس وخاطبهُ بحمية وحماسة فقال لهُ بونابارت دع ذلك عنك فان امك لا تقيم في باريس سنة اشهر حتى تلجئني ان احجر عليها في مارستان المجانين او سجن المجانين وذلك عسرٌ عليَّ لانهُ ينبه الخواطر ويطلق عليَّ السنة القوم فقل لها انها لن ترى باريس ما دمت حيًّا . فصار ابنها يزيد اللجاجة ولا يخشى العاقبة فقال لهُ بونابارت انك لم تزل غلامًا حديث السن ولو كنتَ من سني لزدت تانيًا وتبصرًا في الامور فاذهب بسلام لاني احب ان ارى شابًّا يحامي عن امهِ وقد كُلِّفتَ ان تقضي امرًا عسيرًا فاحسنت وقد سرني الحديث معك ولكني لا اسمح لك بشيء ممّا طلبتَ

وقد اشتهرت مدام دوستايل بمحامد كثيرة ظهر بعضها في ما مرّ ونزيد عليهِ محبتها للحق والوقوف على حقائق الامور ولذلك كانت تبذل جهدها في تعلم كل شيء ولو مهما كلّفها من المشقّة وكانت تعدّ جهل الناس للحق والحقائق اكبر دليل على انحطاطهم . قالت عن بونابارت اني علمت بانحطاطهِ مذ رأيتهُ لا يهتم بحقائق الامور . وكانت تحب الموسيقى وتلهو بها من اشغال التأليف وتزيد السامعين طربًا بحلاوة صوتها وكان لها ميل شديد للتشخيص وموهبة عظيمة فيهِ فكانت تعرف كل المرامي الاجنبية جيّدًا . وتعلّمت في كبرها اللغات التي فاتها تعلمها في صغرها . ومن اقوالها ان درس اصطلاحات اللغة احسن المثقفات للعقل واسهل السبل لمعرفة اخلاق اهلها كما هي . واعظم ما اشتهرت بهِ كتبها التي بلغ عددها ثمانية عشر مجلدًا في كلّ فنٍّ مستظرف حتى سمّوها

فولتير النساء لكثرة المباحث التي بحثت فيها . وقد قصت بمؤلفاتها تلك غايات من اسمى الغايات احداها توسيع علم الحجال عما كان في زمانها والاخرى مهاجمة فلاسفة فرنسا الماديين كديدرو ودولباش وكندلاك وغيرهم مهاجمة عنيفة زعزعت اركان فلسفتهم والثالثة بث روح الحرية في صدور قومها اذ ابانت لهم ان الحرّية اعظم شرط لسلامة الآداب والديانة الصحيحة . وكانت فاضلة تقيّة ورعة غير متزفضة ومانت في ١٤ تموز ١٨١٧ بعد ان جالت زمانًا في النمسا وروسيا وسوج وبلاد الانكليز الذين كانت تعتبرهم اعتبارًا عظيمًا

السهو والغيبة

ما دام الانسان يقظان يكون عقله مشتغلاً يفتكر ويحس اولا يحس بحسب ما يشتغل به من الافكار . ولو لم يكن في الانسان قوّة بها يحوّل قوى عقله من التفكّر بشيء الى التفكر بشيء آخر — هي ارادته المتسلطة على عقله فتحوّله من النظر في امر الى النظر في آخر — لكانت الافكار تجري على الدوام بحسب ما يعرض لها من الامور الظاهرة او الباطنة . اما الامور الظاهرة فمتى عرضت للعقل ولم يكن منشغلاً بالنظر في امر داخلي فانها تحوله لنفسها وتغيّر افكارهُ بحسب تغيّرها امام حواسهِ في الخارج . واما الامور الباطنة فمتى عرضت للعقل فانها تحوله اليها وقد تشغله بنفسها عن كل شاغل سواها بحيث لا يشعر بالمؤثرات الخارجية التي تؤثّر في حواسهِ او لا يدرك معناها . فيحصل للانسان من اشتغال عقلهِ بالامور الظاهرة او الباطنة على ما قدّمنا حال خلاف حالهِ الاعتيادية في تصديقهِ للامور وشعورهِ بها وعملهِ الذي يعقب ذلك الشعور والتصديق . وقد اصطلحنا على تسمية حالهِ هذه الحاصلة من الامور الظاهرة بالسهو وحالهِ الحاصلة من الامور الباطنة بالغيبة . وكلا الحالين مماثل في الماهيّة ولكن اعراضها تختلف بحسب مزاج الانسان وعوائدهِ ومدة تاثرهِ بالمؤثرات التي تعرض له غير الشواغل التي تحدثها

ويكثر السهو في الشعراء والغيبة في الفلاسفة والعلماء . اما الشعراء فلأن نفوسهم تنبسط اعظم انبساطها في النظر الى محاسن الاشياء فيسلّمون لسلطان الطبيعة ويقيّدون مخيلاتهم بين يديهِ مسبيين بمحاسن هذا المنظر ومسحورين ببدائع ذلك الجمع ساهين عن كل مؤثّر يؤثّر في اذهانهم غير ما هم فيهِ منقطعين عن كل شاغل الى الامر الذي يشغلهم فتحل عُرَى الارادة عن قوى عقولهم وتجري افكارهم على حسب ما تديرها الاشياء الخارجية وتحوّلها تنبيهات المتصرفة تارةً تصعد الى اقصى السماء وطورًا تغوص الى اعماق الماء وتبني ما يبنيهِ الافدان والقصور وتزوّقها بنهاويل